

النموذج الحالي. وهكذا فإنه لا يفهم لماذا يحفل التعريف بـ«الاستطرادات، والتفصيلات» و«إثبات رسائل مطولة [لابن خلدون] ولآخرين».⁽¹⁾ لا يفهم لأنه عوض أن ينظر إلى النص كما ورد، ينظر إليه كما كان ينبغي أن يكون.

ثم إنه يدخل في اعتبارات أقل ما يقال عنها إنها متسعة. يحدث هذا عندما يعلن أن عدداً من كتاب السير نقلوا تجربتهم بصدق وصراحة.⁽²⁾ ولعمري ما معنى الصدق والصراحة؟ من يستطيع، عند دراسة النصوص الأدبية، أن يستعمل هاتين الكلمتين، وقد توطدت فلسفة الوعي المغلوط بعد نيثشه ومازكس وفرويد؟ حتى لو أقسم لنا مؤلف بأغلب الأيمان أنه صادق، فلا أحد يصدقه. حتى لو اعتقد جازماً أنه صريح، فإنه لن يصادف إلا الريبة والشك، وسيُنظر إليه على أنه غالط أو على أنه مغالط. فالصدق ستار يخفي أشياء يحرص القارئ على اكتشافها. إن اللسانيين وأصحاب التحليل النفسي يلحون اليوم على أن المواصلات بين الناس مبنية أساساً على المراوغة والاحتيال والكذب. فكل منا كاذب، تكلم أو خلد إلى الصمت.

في كتاب فون غرونباوم، إسلام القرون الوسطى، قسم مخصص للسير.⁽³⁾ المؤلف لا يحيل على السيرة الحديثة، وإنما على السيرة كما وردت عند اليونان والرومان، ويحيل بالخصوص على اعترافات القديس أوغسطينوس. يبدو لي أن هذه المقارنة خصبة نظراً لوجود عناصر كثيرة مشتركة بين الأدب العربي والأدب اليوناني والروماني. وفون غرونباوم، وإن كان في عرضه شيء من الاستفزاز للقارئ العربي (لأنه من خلال المقارنة يسعى إلى القول بأفضلية الأدب اليوناني والروماني، ويعتبر اعترافات القديس أوغسطينوس مثلاً لم تبلغ السير العربية شأوه)، فإنه يمتاز بنظرة شاملة إلى الأدب العربي، فلا يدرس السيرة بمعزل عن الشعر وبمعزل عن التاريخ. وهذه الطريقة في البحث تبدو لي مهمة، إذ على

(1) عبد الدايم، ص. 40.

(2) عبد الدايم، ص. 36.

(3) فون غرونباوم، ص. 297 - 301.